فشل المثقف السوداني

(نتيجة فشل التعليم الذي تلقاه)

المثقف: كل من نال من العلم ما يُفترض أن يؤهله للمساهمة في قيادة مجتمعه وترقيته

ترمي رؤوس الأقلام هذه المثقف السوداني بالفشل لأنه أخفق في النهوض بمسؤوليته، وهي بناء الدولة الحديثة لأمّته.

وقد تتعدد الأسباب وتتشعب الطرق، لكنها في نهاية المطاف تؤدي جميعا الى أن اللائمة في هذا الوضع ملقاة على النظام التعليمي القائم. فقد أثبت فشله في صناعة المثقف، لأن الأسس التي يقوم عليها ومناهجه وأساليب التدريس التي يتبعها معطوبة جميعا. وخذ أيضا عوامل أخرى ساهم كل منها في تفاقم المشكلة بقدر أو آخر، وأبرزها حرب الجنوب الناشئة من إصرار الخرطوم على أن السودان كله دولة عربية، والاستجارة من الرمضاء بالنار في محيط الحلقة المفرغة التي تدور فيها الديمقراطية الطائفية والحكم العسكري. وخذ أيضا الكسل العقلي والجسماني الذي ابتُلينا به كالعديد من بقية الشعوب في آخر الصف... على أننا نرجع هذه العوامل نفسها إلى جذر المشكلة وهو أن المؤسسة الأكاديمية، من القاعدة الى القمة، وُلدت وتظل كسيحة.

على هذا الأساس، فإن المثقف السوداني نفسه ضحية النظام التعليمي الذي تلقّاه في المقام الأول. هذه مشكلة. لكن المشكلة الأكبر هي أن المثقف لم يفعل شيئا لتغيير هذا الوضع سواء من أجله هو أو من أجل الأجيال المقبلة من المثقفين. وهذا إما لأنه لا يعرف انه ضحية نظام تعليمي فاشل، أو أنه يعرف لكنه عاجز بالكامل عن - أو لا يرغب في - تغييره. والنتيجة واحدة في الحالين وهي توقف التنمية والنمو في البلاد منذ استقلالها إلى اليوم. أما العواقب الخطيرة فتتلخص في أن الأجيال المقبلة - في المستقبل المنظور على الأقل – ستسير على الدرب نفسه.

فاليوم، ونحن على عتبة عقدنا الثامن منذ تمتعنا بالحكم الذاتي في 1952، نجد البلاد في حالة مزرية. فهي بلا بنية تحتية من أي نوع، واقتصادها بدائي لا يرقى الى أي مستوى مقبول في القرن الحادي والعشرين، ويضعها التضخم المالي (363.10% في أبريل 2021 وفقا للجهاز المركزي (السوداني) للإحصاء) بين الأعلى على ظهر الكوكب. وبين الديمقراطية الطائفية والدكتاتورية العسكرية تردت الأحوال المعيشية الى حد أن هذه الأرض الغنية بمختلف الثروات صارت جائعة، وقوة طاردة لعقولها وشبابها، وغاب فيها التخطيط المديني وابتليت أقاليمها وأريافها بالحرمان من أي قدر من التنمية، وعجزت حكوماتها المتتالية حتى عن إقامة شبكة مجاري تعفي الناس من حفر الآبار المنزلية لقضاء الحاجة. وإذا علمت أن سكان العاصمة، التي تشقها ثلاثة من أعظم أنهار العالم، يعانون قطع المياه بانتظام تبدت لك بقية الصورة. وباختصار صار السودان أشبه بالذي كان قبل بداية الفترة الاستعمارية: بعيدا كل البعد عن ثمرات الحضارة الإنسانية ولا يتمتع حتى بمستوى السكن والصحة والتعليم الذي تمتعت به أغلبية الشعوب بعيد نهاية القرون الوسطى.

وهذه حلقة مفرّغة ظلنا ندور فيها بلا مخرج منذ ان أمسكنا بمصيرنا. وغني عن القول إننا سنواصل هذا الدوران الى الأبد، إلا إذا بدأنا تغييرا حقيقيا شاملا في مناهجنا التعليمية ومنهاج تدريسها سعيا الى خلاصنا وبداية حياتنا المثمرة المفيدة. وكما يقال، فإن الفشل في التخطيط تخطيط للفشل. وإذا بدأنا اليوم فقد نرى بدايات الثمر الحلو بعد جيلين أو ثلاثة، وقد نطمئن بحذر الى ان المثقف السوداني لا يغرس بذور فشله في أول أيامه بالمدرسة الابتدائية.

مصيبة التعليم

المثقف السوداني فشل في أداء مهمته لأن نظام التعليم الذي أسبغ عليه صفة «مثقف» هو نفسه فاشل. فهذا الذي بين ايدينا الآن بأكمله بلا جدوى ولا حظ له في أن يأتي بالمطلوب منه، أي إعداد المثقف لدوره الأساسي وهو تنمية بلاده. والمنطق البسيط يقول إن غياب التنمية وحالة الاقتصاد المزرية وضيق العيش في بلادنا الآن وانسداد منافذ الخروج من هذا الوضع هي أقوى الأدلة على ذلك الفشل. ولئن كانت هذه كارثة، فالأكبر منها يتمثل في ان الحفاظ على هذا النظام يعني أن أجيال المثقفين المقبلة (أطفال اليوم وأطفالهم) موعودة من الآن بالفشل نفسه.

ربما كان المؤشر الأكبر الى ان نظامنا التعليمي يفتقر الى القدرة على